مبعث النبي

إِلَى أَنْ بَعَثَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ ٱللّٰه صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِإِنْجَازِ[١] عِدَتِهِ[٢]، وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ[٣]، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ[٤]، كَرِيماً مِيلادُهُ. وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ[٥] مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ[٦] مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلّٰهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ[٧] فِي ٱسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ[٨] بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ. ثُمَّ ٱخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ[٩] عَنْ مَقَامِ ٱلْبَلْوَى[١٠]، فَقَبَضَهُ[١١] إِلَيْهِ كَرِيماً صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ ٱلأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِها، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً[١٢]، بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ، وَلاَ عَلَمٍ قَائِمٍ.

اللغة

١ ـ أنجز الأمر : أتمه وأكمله.
٢ ـ العدة : الوعد.
٣ ـ الميثاق : العهد.
٤ ـ السمات : جمع السمة وهي العلامة.
٥ ـ الملل : جمع ملة الشريعة والدين.
٦ ـ طرائق : مفردة طريقة وهي السيرة، المذهب.
٧ ـ ملحد : الذي يعدل عن الطريق المستقيم.
٨ ـ أنقذه : نجاه وخلصّه.
٩ ـ رغب به : أراده ومال إليه وإذا عدى بعن فقيل رغب عنه يعني أعرض عنه.
١٠ ـ البلوى : البلاء.
١١ ـ قبضه : أخذه بقبضة يده، تسلمه.
١٢ ـ تركه هملاً : الهمل الذي لا راعي له ولا مدبر لشؤونه..

الشرح

(إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله ﷺ لإنجاز عدته وإتمام نبوته مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده) وهكذا بقيت الحال والأنبياء تترى لهداية الناس وإرشادهم وتسديد مسيرتهم إلى أن منَّ الله على البشرية ببعثة رسول الله ﷺ فكان تحقيقاً لما وعد الله به من أنه سيرسل رسولاً إلى الناس يهديهم السبيل وهو أفضل الرسل وأقربهم إليه وتكون نبوته تامة كاملة مهيمنة على كل النبوات يجب على كل الناس اتباعه والتدين بدينه والتزام شريعته وقد أخذ الله على النبيين عهده أن يبشروا به ويهيئوا لظهوره حتى إذا جاء استقبلته البشرية بشوق ولهفة وفي الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: لم يبعث الله نبياً آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العهد لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره بأن أخذ العهد بذلك على قوله..

وقد بين الله في الكتب المتقدمة علامات النبي وصفاته المشهورة بحيث لا تخفي أوصافه على أحد كما قال تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه[1] مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾**.

وكان مولد رسول الله أشرف مولد؛ وأكرم ساعة كانت تلك الساعات التي ولد فيها رسول الله الذي حطّم الأصنام وأقام العدل وقَلبَ موازين العالم بأسرها وبناها على أسس سليمة وموازين صحيحة..

(وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطرائق متشتتة) عندما بعث الله نبيه كانت البشرية تعيش الفوضى على كل المستويات وفي جميع شؤون الحياة، كانوا على أديان شتى موزعة مختلفة فيما بينها.. كان هناك يهود لا يعترفون بالنصارى وهناك نصارى يكفرون باليهودية وهناك مجوس وصابئة؛ وكانوا في أهواء موزعة كل يعبد ما يراه مفيداً له ونافعاً حتى الحجر يعبدونه ويقدسونه فإذا احتاجوا إليه وضعُوه تحت قدرهم ليطبخوا طعامهم.. إنهم كانوا أصحاب مذاهب شتى لا يربطهم رباط ولا يجمعهم جامع يوحدهم... وقد بين بعض تلك الانحرافات بقوله:

(بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير إلى غيره) فهناك المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه كما هو الحال في النصارى الذين شبهوه بعيسى ضلالاً وانحرافاً وهناك من ألحد في اسمه أي عدل عن طريق الصواب في تسمية الله واصفاً إياه بغير وصفه

(١) سورة الأعراف، آية/ ١٥٧.

الحقيقي كما هو الحال من جعل له ولداً وجعله أباً.

ومنهم من أطلق لفظ الله وأشار به إلى غيره فيطلق لفظة الله ويريد بعض مخلوقاته كما هي الحال عند بعض الكفار.. وفي هذا الجو من الاختلاف والانحراف بعث الله محمداً.

(فهداهم به من الضلالة وأنقذهم بمكانه من الجهالة) فقد كانت البشرية تعيش ضالة منحرفة لا تعرف ربها ولا تعرف ما يريد بها ومنها... تعيش الكفر والبعد عن كل نافع ومفيد... كان القوي يأكل الضعيف والكبير يظلم الصغير والجور يخنق العدل فبعث الله محمداً فهداهم إلى الحق والعدل وارتفع الظلم وعمّ العدل وأنقذهم بوجوده من الجهل إلى نور المعرفة والإيمان..

(ثم اختار سبحانه لمحمد ﷺ لقاءه ورضي له ما عنده وأكرمه عن دار الدنيا ورغب به عن مقام البلوى فقبضه إليه كريماً ﷺ) بعد جهاد مرير وتعب وكفاح.. وبعد أن بلّغ الناس رسالة الله وأدى إليهم ما أراد سبحانه اختار له لقاءه فقد اختار النبي ما اختار الله له من قربه وجواره ولذا كان رسول الله عند الوفاة بعد أن خُيّر بين الدنيا وما فيها وبين لقاء الله اختار لقاء ربه لأن المحب اشتاق إلى حبيبه وقد رضي الله له ما عنده من الثواب والنعيم والقرب وأكرمه عن دار الدنيا الدنية وما فيها من شوائب ونواقص وما تتضمن من أحداث ومشاكل وأراد أن يبعده عن دار الابتلاء والاختبار فقبضه الله إليه كريماً لم تدنسه الدنيا ولم تغيّر من نفسيته الطاهرة شيئاً بل جاء إلى الحياة فشرفها.

(وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم) وهذه طريقة الأنبياء وسيرتهم ولم يختلف عنهم محمد ولم يخالفهم فيها.. إن الأنبياء يتركون بعدهم في أممهم وشعوبهم ما يمنعهم من الفرقة والتشتت ومن التنازع والاختلاف.. إنهم يجعلون لهم جُنناً واقية من الانهيار والانحراف فكانت الكتب وكان الأوصياء ورسول الله قد وضع لأمته معالم النجاح وقوارب النجاة.. لقد رسم لهم الدرب وبيّن لهم طريق الرشد وهداهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم وقال في الحديث المتواتر المتسالم على صحته: «تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي.. كتاب الله وعترتي أهل بيتي.. وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض..».

وقد نص على ولاة الأمر من بعده وعيّنهم بأسمائهم وأسماء آبائهم فكانوا أئمة أهل البيت لا تخلو منهم الأرض وهم الحجج على الخلق وبهم ينزل الله المطر وبهم يقام الحق والعدل ولكن بسفه الأمة وظلمها لنفسها تنكبت عنهم وانحرفت إلى غيرهم فكان الظلم وكان الضلال وما وصلنا إليه من تأخر وتقهقر..